الفاشية
بين النظرية والتطبيق

10

الماركسيون و«الهولوكوست (المحرقة)»
Marxists and the Holocaust

obeikan.com

obeikan.com

وإذا كانت هناك مساحة واحدة تم وضع نظريات جديدة للماركسيين فيها، فهى الفترة من بعد عام ١٩٣٣ ، ومن خلال دراسة المحرقة. وكان النهج فى تلك الدراسات يحاول التوصل إلى الفهم المادي وراء الأفكار العنصرية للفاشية.

وعلى سبيل المثال ، فقد رأى «دانيال جيران» معاداة السامية باعتبارها واحدة من الطرق التي يمكن أن يخفي بها الفاشيون عدم ملاءمة الراديكالية الخاصة بهم. ومن ثم كانت خدعة الاشتراكية القومية ، وهى التى سعت إلى تحويل الأتباع المناهضين للرأسمالية إلى معاديين للسامية». وقيل للعمال وأفراد البرجوازية الصغيرة أن السبب فى متاعبهم هم اليهود من الطبقات المتوسطة والذين كانوا يشغلون المهن الحرة ، والمهن الأخرى مثل المحامين والتجار والأطباء والصحفيين. وشجع الفاشيين الألمان العاديين لتجاهل أزمة رأس المال وإلقاء اللوم فى تلك الأزمة على اليهود.

ويقارن «جيران» آثار الدعاية الأسطورية التى قام بها « غوبلز » و والتى يصفها بأنها (هذيان من خياله الخاص) قائلا : حالة من الجنون أصبح الجلاد هو الذى تتم محاكمته ، وتم ذبح شعب بأكمله... وكانت المذبحة أثقل في أوروبا الشرقية لأن سكانها من اليهود كانوا أكثر ؛ الغزو الألماني جعل من هذه المنطقة سورا شرقيا للرايخ الثالث. وبالتالي بدأت معاداة السامية ، على شكل «تحيز عنصري» وباستغلال خدعة الغوغائية ، وانتهت بأبشع إبادة جماعية على الإطلاق.

وكان هناك ماركسي آخر والذي حاول أن يشرح تنامى العداء للسامية في عام ١٩٣٠ ، وهو البلجيكي من أتباع تروتسكي ويدعى « أبرام ليونAbram Leon ، والذي كان يكتب في الفترة من منتصف الحرب العالمية الثانية. وقام باستعراض فكرة ماركس بأن معظم اليهود عاشوا «داخل المسام والثغرات الإقطاعية

للمجتمع» ، ولاحظ أبرام ليون ان اليهود كانوا يميلون للعب دور على هامش المجتمع. بمعنى أنهم وفي إطار الإقطاع ، كان العديد منهم من المرابين ، في حين وفى ظل الرأسمالية ، كان اليهود يعملون كمصرفيين ومحامين وخياطين وعمال للغزل والنسيج ، وكانت أقلية فقط منهم يعملون فى المجال الصناعي. وقال : إن الدور الهامشي الذي كان يميل للعبه العديد من اليهود في تشكيلاتهم المجتمعية كمرابين تحت النظام الاقطاعى أو ممارسة المهن الأخرى تحت النظام الرأسمالي ، ولم تكن الأدوار التى يلعبونها بأي شكل من الأشكال تمثل أدوارا «تلقائية».

واستبعد« أبرام ليون » فكرة أن تكون هناك أى «خصائص موروثة سابقة لليهود» ، وبرهن على طبيعة المحاولات المثيرة للسخرية تماما من النازية فى نظرتها وتعاملها مع اليهود. ولن يكون صحيحا أن نقول : إن معاداة اليهود للمجتمع هى التى أجبرت لليهود لإتخاذ هذه المراكز الهامشية. فلا تزال هناك حقيقة أن اليهود كانوا كالغرباء والعيون مركزة عليهم ، وأنهم كانوا في الواقع يحتلون «مواقع لليهود» في المجتمع. ووفقا ليون ، لعب اليهود دورا محددا ، فهم كانوا «طبقة شعبية». وأوضح هذا التحليل لماذا كانت هناك جماعات مثل اليهود عرضة لتلك الأكاذيب العنصرية :« فقد كان ذلك بسبب أنهم قد احتلوا مراكز مختلفة في المجتمع ، وأن هذا ما جعل اليهود أكثر عرضة للهجوم».

إذن لماذا تنامت معاداة السامية في عام ١٩٣٠؟ يفسر ليون ذلك بأنه كان بديلا لتدهور الاقطاع و بدأ الرأسمالية . وفي شرق أوروبا من القرن التاسع عشر ، كان ما زال ينظر إلى اليهود كمرابين ، وأنهم المسئولون عن انهيار المجتمع الروسي و البولندي. فقد سافر عدد كبير من اليهود الفارين من معاداة السامية الإقطاعية إلى الغرب ، ليستقر في فرنسا أو ألمانيا. ومن ثم و في عام ١٩٣٠ تم الإمساك بهم فى

الأزمة التى حدثت للمجتمع الرأسمالي.

وأعقب معاداة السامية الاقطاعية ، معاداة السامية الرأسمالية ، و كانت تلك المعاداة العنصرية ذات طبيعة وعواقب مختلفة. وقال ليون : إنه تم استخدام «معاداة السامية» خلال الأزمة الاقتصادية التي أعقبت عام ١٩٢٩ ، كسلاح لحشد القوى الرجعية و تقسيم الطبقة العاملة. ولما كان هناك ماركسيون آخرون يكتبون حينها ضد الفاشية ، كان «أبرام ليون» معنيا بالحديث عن معاداة القومية اليهودية والصهيونية. وكانت رؤيته البديلة تمثل « الاشتراكية اللاطبقية ». كما قال ليون أيضا أن الاضطهاد النازي لليهود قد سلب بعيدا طابع اليهود الهامشي ، وخلق أسباب لاضمحلال معاداة السامية. وكان ليون وقتها يقوم بالكتابة من فرنسا المحتلة ، وذلك قبل وقت قصير من ترحيله إلى «أوشفيتز» ، ومع ذلك فقد أثار بكتاباته صورة غير عادية من الأمل فكتب يقول :إن محنة اليهود لم تكن مأساوية جدا ، ولكنها لن تتوقف عند هذا الحد. وفي القرون الماضية ، كانت الكراهية لليهود على أساس حقيقي من الخصومة الاجتماعية التي تبناها اليهود ضد فئات أخرى من السكان. واليوم ، فإن مصالح الطبقات اليهودية مرتبطة ارتباطا وثيقا بمصالح جماهير الشعوب في العالم بأسره. وأن اضطهاد اليهود كرأسماليين يجعلهم منبوذين تماما. ويضيف ليون أن الاضطهاد النشرس لليهودية يمثل عارا على معاداة السامية نفسها ، ويعمل على تدمير ما تبقى من الأحكام المسبقة التي أصدرتها الطبقات العاملة ضد اليهود. فالأحياء اليهودية والشارات الصفراء تعطى العمال شعورا متزايدا بالتضامن مع أولئك الذين يعانون أكثر من غيرهم ، وأن الآمهم تفوق الآلام البشرية جمعاء

وقد كرر الماركسيون مرة أخرى كتابتهم عن العلاقة بين الرأسمالية والمحرقة ،

وذلك في أعقاب عام ١٩٤٥ مباشرة، وهذه هي الطريقة التى أوضح بها « أرنست ماندل » عمليات القتل التى تمت : إن المعاملة الوحشية لليهود من قبل الإمبريالية الهتلرية دفعت فقط باتجاه ذروة الهمجية والأساليب المعتادة للإمبريالية في عصرنا.

وفي غضون ذلك ، وفى كتابات «أرنو ماير Arno Mayer ، وهو الذي كان متأثرا بالفئات الماركسية ،و قام بربط المحرقة بما أسماه «السمات المطلقة للحرب العالمية الثانية »ويضيف قائلا :' إن التطرف فى الحرب ضد اليهود كان يرتبط مع التطرف فى الحرب ضد الاتحاد السوفياتي. ولما بدأت الجيوش الألمانية تخسر في روسيا ، دعا ذلك النخب الألمانية للتطلع إلى قتل اليهود كأحد الحلول لتغطيه هزيمتهم حيث اعتبر النازيون اليهود والسوفييت «عدوا واحد » وهو ما تم الإشارة إليه بالمصطلح 'Judeobolshevism'. ونظرا لطبيعة المنطق النازي ، يقول ماير ، فالمحرقة هى عمل عقلاني ، ومحاولة صادقة لكسب الحرب. وكان «معسكر أوشفيتز »، باختصار ، هو نتاج كل من الأيديولوجية النازية والأزمة الألمانية في الشرق ويستدرك قائلا:

إن تطرف هتلر والنازية فى معاداة السامية ، كان شرطا مسبقا و ضروريا للقيام بالمحرقة. ولكن هذا التطرف فى حد ذاته لم يكن كافيا لتحقيق ذلك. ولولا تلك الحرب المطلقة المتصاعدة والغير ناجحة ، والتي كانت في جوهرها « حملة صليبية» ، لما أصبح مالا يمكن تصوره متصورا الآن ، ناهيك عن كونه ممكنًا أو عمليًا.

إن أهم شخصية منذ قام ليون بكتاباته ربما يكون « تيم ميسون» ، الذي نوقشت أعماله في الفصل السابع ، و الذي جادل بأن المحرقة تمثل نقيض من المصالح الرأسمالية. والذى قال أيضا أن ألمانيا النازية قامت بإهدار الأموال ، والأشخاص ، والموارد والمهارات فى تلك المحرقة ، والتي كانت موارد يمكن إنفاقها على المجهود

الحربي. و أضاف بأنه لا يمكنه أن يفهم المحرقة ، وقال فى تفسيره لها أنها تمثل « الأيديولوجية النازية» ، وأنها بهذه الطريقة تفرض «سيادتها السياسية». و كما قلت سابقا ، فإن هذا التفسير يفصل بين العلاقة بين رأس المال والفاشية ، وهى الجزئية التى تمثل أحدى الموضوعات الرئيسية في النظرية الماركسية للفاشية. ومع ذلك ، فقد ذهب عدد من الماركسيين إلى أبعد من ذلك مثل «مندل» أو الحجج المادية ل «مايز» ، في وصف المحرقة بأنها لغزا غير مفهوم حيث يقول إنها شيء فظيع حتى أنه لا يمكن بأي حال من الأحوال أن يتم تفسيرها. وهم بذلك لا يقطعون الصلة بين الفاشية ورأس المال وحسب ، بل يقطعون الصلة بين المحرقة والتاريخ. والكاتب « إسحق دويتشر Isaac Deutscher » يمثل نموذجا لهذا الجيل ومن كتاباته:

إن أكبر عقبة تواجه المؤرخ الذى يحاول فهم المحرقة اليهودية هى « التفرد المطلق لتلك الكارثة». ولن يكون الأمر مجرد مسألة وقت أو وجهة نظر تاريخية. فأنا أتك في أن يتمكن الناس بعد ألف سنة من الآن من فهم «هتلر» ،أو «أوشفيتز Auschwitz » ، و«مايدانيك Majdanek » و تريبلينكا Treblinka « أفضل مما نفهمهم نحن الآن. لقد كانت الغضبة النازية مصممة على الإبادة الغير مشروطة لكل رجل يهودي وامرأة وطفل في متناول اليد ، ولا يسع المؤرخ ، إلا أن يحاول الكشف عن دوافع السلوك البشري ، وعن المصالح الكامنة وراء تلك الدوافع النازية .

والسؤال هو من الذى يستطيع أن يحلل الدوافع والمصالح وراء ما ارتكبه أوشفيتز؟ ... إننا نواجه هنا لغزا كبيرا لتدهور الطابع البشري والذي سوف يربك ويروع الناس إلى الأبد .

إن معظم الماركسيين ومنهم على الأرجح «تيم ميسون» ، قد حاولوا العثور على

منتصف الطريق بين «دويتشر» من جهة و«مندل» أو «ماير» من جهة أخرى. ومؤخرا ، قام المؤرخ « نورمان جيراس Norman Geras »بالفصل بين ما أسماه بالمجالات الثلاثة للجدل. ويعرض ثلاثة أزواج من التصنيفات للجرائم الخاصة بتدمير يهود أوروبا :

• فهى إما أن تصنف على أنها جرائم يمكن مقارنتها بالجرائم الأخرى / أو أنها تمثل جرائم فريدة من نوعها .

• وإما أن تكون جرائم لها تفسير عقلاني / أو جرائم تستعصي على الفهم .

• إما أن تكون جرائم جاءت نتاجا للرأسمالية والإمبريالية / أو جرائم تسببت بها مجموعة من العوامل الأخرى.

ويتابع« نورمان جيراس» حديثه قائلا : لا أعتقد أننا سنتمكن من إجراء أي تقييم مناسب من خلال تبني قطب واحد فقط من كل زوج من هذه المتناقضات الثلاثة. فهناك دائما « نقطة معينه وسيطة» ذات علاقة بكل من قطبى التناقض فى كل نقطة من النقاط الثلاثة المذكورة أعلاه.

ومن المهم أن نلاحظ أن جيراس يرى بجدوى إيجاد هذا المركز الوسيط لتوصيف تلك المحرقة ، ولكن حسب تقليد الماركسية الكلاسيكية الأخرى تم رفض أى غموض أو حل وسط عند احديث عن الوحدة وطنية والسلطة. وهم يقولون : إنه من المؤكد والطبيعى إن المحرقة مماثلة لغيرها من الجرائم الفرديه أو الفريدة من نوعها ، ولها تفسير عقلاني وتفوق الاستيعاب على حد سواء ، وهى نتاج الرأسمالية والإمبريالية ، كما أنها نتاج لمزيج من العوامل الأخرى. فالمحرقة قابلة للمقارنة وفريدة من نوعها فى نفس الوقت أيضا. فهى قابلة للمقارنة ؛لأن المحرقة جزءمن القصة الرأسمالية. وعلى حد تعبير «سيجمونت بومان Zygmunt

Bauman ، فيقول : « تولدت المحرقة النازية وتم تنفيذها في مجتمعنا الرشيد الحديث ، ونحن فى أعلى مراحل حضارتنا ونحن نتربع على قمة إنجازاتنا البشرية. إذ تاريخ الرأسمالية هو تاريخ مفعم بالدم والقتل. فبمجرد أن تتولد الرأسمالية ، فإنها كنظام جديد تتطلب الحاجة إلى الثروات بشكل استثنائي». ولتحقيق هذا التراكم الأولى المطلوب لرأس المال كان يجب تحقيق ذلك من خلال توسيع نطاق الإمبراطورية ، وعن طريق وضع حد السيف على رقبة أمريكا الجنوبية ، والنقل اجباري للعبيد الأفارقة. وعلى حد تعبير كارل ماركس :

إن رأس المال يأتي إلى العالم كنزيف من الرأس إلى القدم ، متخللا كل مسام اجسم بالدماء الممتزجة بالأوساخ... فاكتشاف الذهب والفضة في أمريكا ، و لاستعباد وتسخير السكان الأصليين للعمل في المناجم ، وبداية الغزو والنهب لجزر الهند الشرقية ، وتحول أفريقيا لفريسة للصيد التجاري للجلود السوداء ، كل ذلك جاء مؤذنا ببزوغ «الفجر الوردي للإنتاج الرأسمالي».

وقام ممثلو البرجوازية المتحضرون بهذه الجرائم الغير عادية ، و لم تتوقف جرائمهم عند هذا الحد ، بل استمرت لإخضاع الهند في القرن الماضي ، وكذلك من خلال الحروب فى فيتنام وكوريا وكمبوديا وحرب الخليج فى أيامنا هذه.

إن المحرقة مماثلة لجرائم القتل الأخرى ، ولكنها وفى نفس الوقت مختلفة أيضا. فقد استخدمت ألمانيا النازية ، أساليب الإنتاج الصناعي ، والآلات والتقنيات الإنتاجية والبيروقراطية ، والرأسمالية فى صنع « آلة لقتل اليهود». ومن الجدير بالذكر انه كان هناك شيء فريد بخصوص الطريقة المنهجية المحددة التي اتبعتها الدولة الفاشية لقتل اليهود.

كما أشار المؤرخ «لوسي داويدوويتش Lucy Dawidowicz »إلى أن

الديكتاتورية النازية المعنية كانت تعمل من خلال جهاز بيروقراطي وفني متكامل و التابع للدولة الألمانية والحركة الاشتراكية الوطنية ، وأن النازية عملت على توظيف أفضل الوسائل التكنولوجية المتاحة لتحقيق قتل اليهود. كما يقترح راؤول هيلبيرج Raul Hilberg ، أن نجاح النازية فى هذا القتل الجماعى كان غير عاديا : فالإبادة الألمانية ليهود أوروبا كان يمثل أول عملية تدمير مكتملة في العالم. و ما هي إلا علامة فى إنجازات هتلر بوصفها أفظع جريمة حتى الآن ارتكبت بأيدى البشر.